محطات في تاريخ اللغة

للأعاجم المستعربين فضل عظيم على اللغة العربية والنهضة الأدبية العلمية العربية مَدينة لهم فهم مؤسّسوها وقادتها، ولا يسع الباحث المنصف إلا الإقرار بأن عمل العرب الخلص ضعيف في الثقافة العربية فبعد الحميد بن يحيى الكاتب أول من أطال الرسائل ووضع قواعدها، وبشار وأبو نواس اللذين فكّا الشعر من قيوده، وأبو نواس أول شاعر «فهم» الشعر كما يفهمه المجددون، وابن الرومي أول شاعر أطال قصائده ووحّد مواضيعها.. وجرمانوس فرحات أول نافخ في بوق النهضة في القرن الثامن عشر. واللبنانيون حملوا مشاعل النهضة في وطنهم ومصر وأميركا وفي كل قطر نزلوه، وأي بلاد لا جالية لبنانية فيها؟ ومعظم هؤلاء انقادت لهم أوضاع اللغة العربية، فأقالوا عثرتها، ووجهوا نهضتها، وبعثوا فيها حياة جديدة ونفحوها بأساليب كُتب عليها الخلود.

لقد أصاب الأب هنري لامَنس إذ شبّه سوريا بجسر عَبَر عليه كل الفاتحين الذين حفظ ذكرهم تاريخ المشرق، وكان هؤلاء الغزاة يفرضون لغتهم على أبناء البلاد، فتكلم السوريون اليونانية والسريانية وغيرهما من لغات الفاتحين الذين امتزجوا بهم. غير أنهم، في القرن السابع للميلاد – أي بعد الفتح العربي – أحبوا اللغة العربية وعكفوا على درسها والتعمّق في معرفة أسرارها ومميّزاتها فنثروا ونظموا وألفوا في جميع فنونها، وكان منهم الخطيب والشاعر والعالم والفيلسوف، واستفاد الخلفاء من مواهبهم وكان منهم الوزراء والكتبة ورؤساء الدواوين.

... وجاء الأتراك، وكادت العجمة تكتسح الجزيرة وتتغلغل في جميع أطرافها، ووجدت اللغة العربية نصيراً لها لدى اللبنانيين عموماً ولا سيما المسيحيين الذين جعلوا أديرتهم وصوامعهم أندية أدبية علمية عربية جمعوا فيها كل ما أهمله الغريب المستعمر يؤيده ابن البلاد الغافل، ولولا هؤلاء النهضويون لبقيت اللغة في سبات عميق لأنّ غيرهم كانوا لاهين عن لغتهم بالتودّد إلى الأجنبي ومساعدته على تجزئة البلاد، والقضاء على لغتهم، وفي القضاء على القومية وعلى الطموح إلى السيادة والاستقلال.

لا تنهض أمة متفرّقة مفككة العرى، ولا تتوحّد صفوفها إلا بتوحيد لغتها، واللغة شعار القومية بل هي القومية بالذات، وان الذين وقفوا حياتهم وجهادهم لينهضوا بلغة البلاد وينشروها بين جميع طبقات الأمة هم وحدهم موحّدو الصفوف بل هم واضعو حجر الزاوية في بناء الاستقلال.

حَفظ اللبنانيون لغة يعرب، حملوا لواء الأدب حيث وُجدوا، ان لهم على اللغة فضلاً عظيماً.

فلنقل لمن ينعي علينا الكفاية ويصمنا بالتفرنج والثورة على اللغة، اننا حافظنا على لغة قريش والقرآن الكريم وأحييناها وتجلينا لها أكبر المناصرين وأبرّ الأبناء يوم تبيّن كثيرون يناصرون أعداء البلاد ويعضدون أعداء اللغة.

فأين المسؤولون في وزارات الثقافة والإعلام والتربية.. من هذا الإنجاز العظيم في دنيا العرب؟ ولِمَ لا ينشغلون مثلاً بوضع أسُس لمجمع علمي أو لغوي فيحظون بشيء من الثقة من قِبَل اللبنانيين والعرب ويشعرون، هم قبل سواهم بأن مناصبهم ذات جدوى؟!..

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه